مقاتلون في الخفاء

قصة بقلم عبد الرحمن الربعي

ـ الحمد لله ، وصلنا !
ـ وصلنا !
ـ صلوا على النبي
ـ اللهم صل على محمد !
ـ يا الله !

وهكذا اخذت تنطلق اصوات الركاب عندما توقفت سيارة النقل جوار مستشفى المدينة الكبير ، وفتحت ابوابها وتقيأت الحمولة والاجساد ، وتفاطر الحمالون الصغار لاهثين وتجمعوا حولها .

امسك علوان بحقيبته الجلدية وغادر السيارة ولم ينس ان يودع الصبية السمراء التي كانت جالسة جواره بنظرة باسمة ردت عليها بأحسن منها ، وتجمع حوله الحمالون .

ـ عمي ، الله يحفظك انا احملها معك
ـ لا عمي ، انا اقوى منه
ـ انها اكبر من رأس جدك
ـ لا أنا
ـ امش ابن الكلب
ـ وصلت قبلك
ـ العن والديك
ـ كفى شجارا سأحملها بنفسي .

لقد تحركت السيارة من بغداد منذ اطلالة هذا النهار ولم تصل الى الناصرية الا بعد انقضاء اكثر من سبع ساعات ، واستقبلته شوارع مدينته ورأى الكثير من الوجوه التي يعرفها ، وجوه جنود وصبية وطالبات مدارس وعمال بناء وسائقي سيارات ، وشعر بالامان والامتلاء وتنفس عميقا ، هذه الوجوه التي احبها بطفولة وعاشت معه وهو في خضم تصعلكه في شوارع المدن الغريبة ، وابتسم يتفتح وهو يصافح يد جاسم بائع المرطبات ، وتذكره يوم كانا يلعبان كرة القدم معا في فريق المدرسة الغربية ، وكان جاسم ابرز لاعب في خط الدفاع آنذاك وهو سبب فوز مدرسته بكأس البطولة لثلاث سنين متوالية ، وتذكر كيف كان الحماس يدفع بالمتفرجين لان يحملوه على اكتافهم في نهاية المباراة وهم يصرخون جذلين :

ـ الكأس كأسك يا بطل ، يا جاسم .

ـ الا ان الكرة قد سرقته واستحوذت عليه فلم يستطع مواصلة الدرس وها هو الان والمطاف ينتهي به بائعا للمرطبات ، الا انه لا زال محتفظا بقوامه الرياضي المنتصب ونظراته الثاقبة .

ـ وهل تلعب هذه الايام ؟
ـ هذا مرض لا شفاء منه !
ـ مع اي فريق ؟
ـ والله مع فريق نادي الجزائر وقبله كنت مع فريق نادي الحرية.
ـ الكأس كأسك يا بطل ؟.

ورد جاسم بعد بسمة عريضة :

ـ يا جاسم .

ثم اوغل في الشارع المترب ، وتوجه صوب دكان محمد عبيد وحياه، ولفت نظره ان محمد عبيد قد اطلق لحيته وصبغ شعرها الابيض بالحناء، واقسم محمد عبيد الا ان يسقيه قنينة كوكا .

ـ انت عزيز علينا يا علوان
ـ الله يعزك ويحفظك
ـ لقد اخذتك منا بغداد !
ـ المعيشة يا عم محمد ، المستقبل ، ولكن لا تخف فهذه المدينة هي مثوانا الاخير .
ـ اما سمعت بالمثل الذي يقول : كل مدينة عند اهلها مصر !
ـ الناصرية عزيزة علينا رغم انها قد اوصدت كل ابوابها دوننا .
ـ لا تجزع ، الله كريم مع عباده .

لم يلفت نظره شيء جديد في الشارع الا قطعة الارض العائدة الى سلمان الحداد فقد شيدت عليها دار ذات طابقين جعلت الشارع محترما بعد ان كان يعج بالمنازل الواطئة والحفر المليئة بمياه الغسيل ، ورأى سياج المستشفى المحاذي لشارعهم وقد مال الى الخارج فبدا له كالحبلى التي تنوء بوليدها المنتظر .

« لقد عدت بشوق دفين لان اغمس نظراتي الحائرة على عتبات هذه المدينة الام ، اتطلع الى وجوه اخوتي الصغار ووجهي امي وابي ، كم انا بشوق لان اصافح يد والدي الكبيرة التي طالما امسكت بالمسحاة ببطولة وشقت الارض لنعيد اليها الحياة بعد جدب طويل ، هذه اليد التي داعبت شعري طفلا وصافحتني لتودعني قبل ستة شهور وانا في دربي الى بغداد وكلمات صاحبها تقول لي :

ـ اذا كان لا بد من رحيلك فارحل رافقتك السلامة .

ـ يجب ان ارحل يا والدي والا اصابني النتن من هذه البطالة المدمرة ، انا لا اطيق عنكم بعدا ، ولكن لا بأس يا والدي ، علينا ان نبحث عن حياة اسعد لنا نحن الذين نبدأ من نقطة الصفر في محاولة منا للوصول الى القمة لنغرس رايتنا هناك .

اي شيء لنا يا والدي ؟ لم افتح عيني وفي فمي ملعقة من ذهب بل في فمي غصة من ألم ونكد ومرارة ، وفي الوقت الذي كان فيه اقراني يغطون بنوم هانيء عميق في اسرتهم الدافئة كنت اشق طريقي صوب العمل لاعمل بجهد ، تشققت يداي وتقيحت جروحي وشحب لوني وكنت ابكي يا والدي من تعبي ولكنني لا اظهر دموع الهزيمة امامك فالموت اشرف لي من هذا ، وكنت ابتسم عندما يدس صاحب العمل في يدي الدراهم الاربعة اجرتي اليومية حيث استحوذ عليها برجولة واطبق عليها اصابعي واسرع الى امي لاضعها في يدها فتقبلها وترفع وجهها الى السماء شاكرة ، ثم تدسها في صرتها البيضاء وتورق على وجهها المكدود بسمة امل صفراء حيث تحيل الدراهم الاربعة في صباح اليوم التالي الى كمية من التمر او سمكة كبيرة او عدد من البيض ، وكانت تقول لاخوتي الصغار :

ـ كلوا من تعب علوان
ـ عاش اخونا
ويتشبثون بعنقي ويقبلونني .
ـ سأجلب لكم المزيد .

كنت اعمل بنكران ذات وشهامة من اجل هؤلاء ، احس بانني رب البيت انذاك ، وعندما حاولت والدتي تزويجي من بدرية ابنة اختها لم اوافق .

ـ انها ابنة اختي ولا تكلفنا شيئا ؟!

ـ لا اريد ان ازيد من عدد البائسين في الدنيا ! ثم ان اخواتي لا زالوا صغارا .

ـ لكل واحد رزقه .

ـ هناك وقت طويل يا امي

ـ اريد ان ارى اولادك قبل ان تغمض عيوني

ـ يومك بعيد

ـ الله يهديك .

وعندما تغيب عنا اندفع اكثر واحس بعدك بوحشة قاحلة ولست ادري اية بقعة من بقاع الكويت تضمك ! لم تكن تجيد عملا معينا غير ان لك جسدا رهيبا بامكانه ان يهدم السدود ويرفع اطنان التراب ويشق الترع ويصدع القر والحر دون ان يستسلم للتعب او الالم ، ايها الباسل الحزين ، منذ ان تطلعت الى قسماتك كنت اتصورك دائما عندما تنهي عملك وتاوي الى (خان) عتيق وتفرش عباءتك الصوفية الواسعة وتتمدد عليها ثم تدخن غليونك بلذة وتفكر بنا ، ولكن العيش ليس سهلا وانا لست مثيلك فانا اجيد عدة اعمال ، معمار ماهر ، وسائق سيارات ، واعرف قليلا في الحدادة والنجارة ، واكتب رسائلي اليك بنفسي فقد تعلمت ذلك في مدرسة ليليه عندما عملت مع الانكليز في ميناء البصرة ، حملت الطين عى راسي والطابوق على ظهري وجلست وراء مقود سيارات متنوعة وبقيت اهابك حتى الاخير لانني مع كل هذا لم استطع ان اصل الى فحولتك المرتسمة على كل جارحة منك » .

ـ اهلا علوان

ـ اهلا عويد

ـ حياك الله

ـ اشكرك ، الله يطيل في عمرك !

عرج في الفرع الذي يؤدي الى بيته ولاحت له نجية جارته البذيئة اللسان جالسة امام بيتها ، وكلبها الهرم (لافي) ينطرح على مقربة منها وهي تفزل على عادتها ، ورأى سيارة عباس الشعلان التي لم تتبدل منذ سبع سنين واقفة امام بيته وقد بان عليها الانهاك الطويل لكثرة ما حملت من بضائع وركاب في رحيلها اليومي المستمر بين الشطرة والناصرية .

طرق الباب وجاءه صوت امه من الداخل فتفتحت شرايينه على ندائها الخالد .

ـ من بالباب ؟

ـ انا علوان

ـ علوان ؟!

وزغردت ، وابتسم فرحا فقد احضر لها معه (فوطة) ولوالده عقالا ويشماغا لندنيا ، ولاخوته لعبا وفواكه ، وفتحت الباب واحتضنته بقوة وملأت انفه رائحة الجنة التي فطم منها قسرا ، وسألها :

ـ كيف حالك يا امي ؟

ـ الله يسلمك يا حبيبي

ـ وابي ؟!

وصمتت .

ـ ما به ؟ قولي ؟

وقادته الى غرفة جلوسهم الكبيرة ، وجفل عندما رأى والده ممددا على سريره وصرخ :

ـ ابي ، ابي ...

والقى بنفسه عليه ، كان ممددا باردا بصقته سنون التعب والالم على سواحلها الجاحدة سفينة محطمة الاخشاب ، وفتح عينيه .

ـ علوان ولدي

ـ اهلا بابا

انذاك كان الصغار قد تشبثوا بساقيه فرحين مستبشرين :

ـ علوان ، اخونا علوان

ـ ماذا جلبت لنا ؟

ـ اين لعبتي ؟

ـ اين ثوبي ؟

واخذهم الى صدره بعد ان فطن الى صراخهم وقبلهم واحدا واحدا واعطاهم ما جلبه لهم ثم جلس بجانب والده يغالب دموعا لم تلبث ان غلبته .

وسأل امه :

ـ لماذا لم تخبريني في رسالة ؟

ـ لم يرغب بذلك ، قال ان الموضوع سيؤلمك .

ـ ولكن ، لماذا انا في بغداد ؟ اليس من اجلكم ؟

ـ نعم من اجلنا ، ولكن هذه مشيئته فماذا افعل ؟!

وتململ المريض في مكانه ثم انقلب على جانبه

ـ بابا

ـ انا بخير لا تهتم

ـ سآخذك للطبيب .

وعلقت امه :

ـ لقد بعت قلادتي بعشرين دينارا وانفقناها في الادوية والفحوص ولكن دون جدوى !

وغادر الدار مسرعا وطرق باب عباس الشعلان ، وبعد التحية والسلام قال له :

ـ عباس ، هات سيارتك لنرسل والدي الى الطبيب .

ورد عباس :

ـ على عيني وعلى راسي انت وابوك يا علوان .

ـ اشكرك ، لا اراك الله مكروها .

ودخل عباس الى داره ولم يمكث طويلا في ارتداء ملابسه وعاد مسرعا .

ـ توكل على الله .

وفي الطريق سأل علوان :

ـ كيف بغداد هذه الايام !

ـ لم ار من بغداد يا عزيزي الا المعمل الذي اشتغل فيه من الصباح حتى المساء .

وردد عباس الشعلان بحنجرة مرهقة :

ـ لا حول الله ! ومتى تنتهي اتعابنا ؟!

واجاب علوان وهو يطرد ذبابة كانت واقفة على جبهته .

ـ لا اظن ان هذا اليوم قريب .

بغداد ـ اكاديمية الفنون العليا

عبد الرحمن مجيد الربيعي

صدر حديثا :

لأرض يا سلمى

ربابا

مجموعة قصص بقلم :

محمد عبد الولي

اول مجموعة قصص يمنية تصور المجتمع اليمني وترهص بثورته المجيدة

دار الاداب